

الدَّعْوَةُ الْعَبَّاسِيَّةُ

دراسة في الهيرية من خلال المصادر الجديدة والآراء المتضاربة

د. نبيه عاقل

جامعة دمشق

احتدم نقاش طويل ، بين الباحثين المحدثين ، ومن خلال دراسات علمية جادة ، كان بينها رسائل قدمت لنيل درجة الدكتوراه من جامعات كبرى (١) حول موضوع هوية الثورة العباسية ، التي أدت الى سقوط خلافة بني امية ، وقيام خلافة بني العباس . وكان ما قاله (دانييل دينيت) في رسالته عن (مروان بن محمد) من أن: نقطة الجدل في أطروحاته هي ان سقوط الامويين لم يكن نتيجة ثورة في خراسان ، بل نتيجة ثورة في سورية (٢) ، المؤشر الاول الى موقف مخالف للمواقف التقليدية من الدعوة العباسية . فقد كان التفسير التقليدي ، وهو الغالب ، ان الدعوة العباسية التي انتهت بفوز عسكري لمؤيدي ودعاة بني العباس ، هي ثورة انقلابية نقلت السلطان في الدولة من اسرة عربية قرشية مسلمة الى اسرة اخرى لها نفس الموصفات ، وانها تحقيق لمسعى آل البيت الطويل للوصول الى ارثهم او حقهم في الخلافة باعتبارهم اقرب الناس نسبا الى الرسول ، الامر الذي كانوا يتنازعونه مع آل علي بن ابي طالب (الشيعة) الذين سبقوا سواهم من القرشيين في المطالبة بهذا الحق .

والى جانب هذا التفسير التقليدي كان هناك ، قبل اشارة (دينيت) ، ما يمكن تسميته بالتفسير (العنصري) او (القومي) الذي يمثلته مستشرقون رواد ، من أمثال (فان فلوتن) و (فلهاوزن) وسواهما ، الذين رأوا في الدعوة العباسية وانتصارها ثورة قومية ايرانية توجهت ضد الظلم الاجتماعي والاقتصادي ، والاضطهاد السياسي ، الذي كانت تعاني منه فئة الموالي التي كانت غالبيتها من الفرس ، والتي تمثل الجمهور الاعظم من رعايا الدولة الاسلامية . وقد رأى المستشرق فان فلوتن ، الذي تأثر بالانكار القومي التي كانت تسود اوروبا في القرن التاسع عشر ان الازمة التي شهدتها الدولة الاسلامية في نهاية الحكم الاموي ، والتي انتهت بفوز بني العباس ، ازمة صراع على السلطة بين الاقلية العربية الحاكمة في الدولة ، والغالبية غير العربية من الرعايا غير العرب ، وعلى انحياز اهل خراسان الى الدعوة العباسية وتأييدهم لها بأسباب من بينها (٣) :

١ - كره الجماهير الفارسية لحكامها العرب .

٢ - ميل غالبية الموالي الى آل البيت ومساندتهم للثورات الشيعية .

٣ - الاخطاء التي ارتكبتها الحكام العرب وجورهم في معاملة رعاياهم من غير العرب ، مما ادى الى انبعاث الروح القومية الايرانية التي غدت المظلة التي يستظل بها المحرومون من ابناء الشعب الايراني والذين شفلتهم فكرة المهدي المنتظر .
Messiah

وجاء فلهاوزن بعد ذلك فأيد آراء فان فلوتن وانطلق منها في عرض ارائه التي ضمنها كتابه (الدولة العربية وسقوطها) (Das Arabisch Reich und Seinsturz)

وعلى الرغم من أن فالهاوزن كان أول من تنبه الى دور عرب خراسان في الثورة العباسية ، الا انه عزا تحركهم الى دوافع عصبية فحسب ، تتمثل في النزاعات القبلية التي تعود جذورها الى ما قبل الاسلام ، وسها عن الظروف الجديدة التي نجمت بعد استقرار القبائل الفاتحة في الامصار المفتوحة وارتباط مصالحها باوضاع العصر الاقتصادية والاجتماعية .

ولم يكن الحاح جماعة التفسير العنصري او القومي على دور العناصر الفارسية فحسب ، بل شمل هذا التفسير عناصر قومية اخرى ، كعنصر الترك الذين كانوا يسكنون بلاد ما وراء النهر والذين لعبوا دورا بارزا في انجاح الثورة العباسية ضد الامويين ، حتى ان بعضهم اعتبر ابا مسلم الخراساني من اصل تركي، وانه استطاع في وقت قصير ان يكسب الى صفه اترك بلاد ما وراء النهر (٤) .

وجاء بعد هؤلاء الباحثين باحثون جدد ، لعل اولهم واشهرهم هو المستشرق البريطاني المعروف هاملتون جب ، ومن بعده برنارد لويس ، اللذان نبها الى دور فعال للعرب في الثورة العباسية .

وكانت اشارة جب المشهورة في كتابه « الفتوح العربية في آسية الوسطى » والتي يقول فيها ان الروايات التي تظهر حماس الايرانيين لابي مسلم الخراساني صحيحة فقط في الفترة التي تلت نجاحه ، اذ ليس هناك اي دليل في رواياتنا التاريخية الموثوقة على حركة جماهير ايرانية كما يصورها بعض المؤرخين (٥) ، نقول : كانت اشارة جب هذه اول تنبيه يصدر عن باحث جاد الى اهمية دور العرب الفعال في الثورة العباسية . وفي العديد من البحوث والكتب ، اشار المستشرق جب الى اهمية دور العرب اليمانية في نجاح الدعوة ، واكد على عدم عنصرية الثورة ، ونفى

وجود حركة جماهيرية إيرانية يرأسها ابو مسلم الخراساني تهدف الى اقامة حكم تكون الكلمة فيه للعنصر الفارسي . وجاء برنارد لويس بعد جب ليؤكد دور العرب القاطنين في خراسان في نجاح ثورة بني العباس (٦). وكانت اشارات هذين المستشرقين على بساطتها وعدم عمقها ، مؤشرا لاتجاه جديد في دراسة هذا الموضوع .

وقد ساعد على نماء هذا الاتجاه والانحراف عن الخط التقليدي أو القومي اللذين اشرنا اليهما ، توفر مصادر مخطوطة لم يتح للباحثين السابقين ان يستخدموها ومن بين هذه المصادر مخطوطة « أخبار العباس وولده (٧) » وهي لمؤلف مجهول يرى الدكتور عبد العزيز الدوري الذي ساهم في نشرها وكتب مقدمة لها ، بأنه من مؤرخي اواسط القرن الثالث الهجري ، وانه قد يكون محمد بن صالح بن مهران المعروف بابن النطاح المتوفى عام ٢٥٢هـ / ٨٦٨م (٨). ويذكر الدكتور الدوري في مقدمته ان مؤلف الكتاب « اعطى صورة داخلية لطبيعة الدعوة واحاديثها وكشف عن جذور الغلو فيها مما لا يناسب العباسيين بعد مجيئهم للحكم ، وهذا يجعل بعض محتويات الكتاب اقرب الى الوثيقة السرية منها الى كتاب للجمهور » (٩). واهمية هذا المؤلف انه انفرد بمعلومات عن بداية الدعوة (حتى سنة ١٠٠ هـ) وبعض احداثها واسرارها مما لا نجده عند سواه من جهة ، ولربما كان استقائه من الحلقات الداخلية لرجال الدعوة ورؤسائها والدعاة البارزين فيها . وعند الدوري ان ما جاء في الكتاب من اخبار عن نشاط ابي مسلم في خراسان وعن نشاط المسودة العسكري بقيادة قحطبة وانتصاراتهم تعتمد على هذه المصادر وعلى اناس متطين بالحلقة العباسية مثل ابي اسحق بن الفضل الهاشمي ، وبعض افراد الاسرة العباسية نفسها مثل عيسى بن عبد الله « عيسى بن موسى » وابراهيم بن المهدي والرشيدي نفسه (١٠). وتكمن أهمية المعلومات الواردة في هذا المصدر الجديد في اننا نتعرف من خلالها على الاساليب التي تبنتها الدعوة لجذب رؤساء العشائر العربية في خراسان والعرب المستقرين في واحات مرو وقراها (١١) .

اما المصدر الثاني الذي جاءت فيه معلومات لم تكن معروفة للباحثين السابقين ، فهو كتاب « تاريخ الخلفاء » لمؤلف مجهول من القرن الحادي عشر ، وقد نشرت مصورة عن هذا المخطوط الوحيد وقدم لها بطرس غريازنيويج ، الاستاذ في معهد الاستشراق في موسكو ، وذلك في موسكو سنة ١٩٦٧ . ويذكر ناشر المصورة في ملخص بالانكليزية ملحق بها ان المادة الموجودة بالكتاب تعتمد في اصولها على مصادر سابقة ثلاثة هي : تجارب الامم لابن مسكويه ، وكتاب المعارف لابن قتيبة ، ومخطوطة تاريخ الخلفاء لمؤلف مجهول التي كان الدكتور الدوري قد عثر عليها عام ١٩٥٧ (ونشرها عام ١٩٧١ كما اشرنا في الهامش ٧) . ويذكر كاتب

الملخص هذا ان التشابه بين ما جاء في « تاريخ الخلفاء » ومخطوطة « اخبار العباس وولده » كبير جدا ولا سيما في احداث الدعوة وظروف وصول الخلفاء العباسيين الى السلطة ، حتى ان مؤلف تاريخ الخلفاء يبدو وكأنه نقل نقلا حرفيا عن صاحب كتاب « اخبار العباس وولده (١٢) » .

وقد قمت شخصا ببعض المقارنات بين الكتابين فوجدت ان هذا الزعم صحيح وان المرء يميل الى الاعتقاد بنتيجة ذلك ان مؤلف « تاريخ الخلفاء » كان في كثير من المواضع يلخص المعلومات الواردة في كتاب « اخبار العباس وولده » وفي مواضع اخرى ينقلها نقلا حرفيا .

ونأتي الى المصدر الثالث الذي فات استعماله أصحاب الرايين الاولين وهو الجزء الذي يعني بانساب واخبار « العباس بن عبد المطلب وولده » من انساب الاشراف للبلاذري ، والذي نشره مؤخرا الدكتور عبد العزيز الدوري (١٣) . وفي هذا الجزء من الانساب ومن خلال الحديث عن شخصيات عباسية ، من امثال محمد بن علي بن عبد الله بن العباس واولاده كابراهيم وعبد الله وبعض الشخصيات التي شاركت في الثورة العباسية والدعوة لها كقحطبة وابي سلمة والسفياني وسواهم (١٤) يذكر البلاذري اخبارا لا تتوافر عند سواه من أصحاب المصادر المتداولة ، كما ينقل عن رواية ثقة من امثال المدائني وعمر بن شبة والهيثم بن عدي وسواهم ، فهو بهذا يكمل ما في مصادرنا من نواقص في الروايات لم تتوافر لهم .

والمصدر الجديد الرابع الذي لم يقع للباحثين الاولين في موضوع الدعوة العباسية هو كتاب الفتوح لابن اعثم الكوفي الذي نشر في حيدر آباد عام ١٩٧٥ . وابن الاعثم مؤرخ عربي عاش في القرن الثالث الهجري وتوفي في العام ٣١٤ هـ / ٩٢٦ م ، وكتابه « الفتوح » لم يكن معروفا للباحثين ولم يفد منه الا باحثون محدثون على الرغم من أهمية المادة العلمية المتوافرة فيه . ويعتمد ابن الاعثم في ذكر اخباره اسلوب الاسناد الجمعي كاليقوبي فيذكر في مقدمة كتابه اسماء الرواة الذين اخذ عنهم اخباره . وتنبع أهميته من انه عاش في فترة مبكرة وانه كان من المصادر التي اعتمدها من تلاحه من المؤرخين . وطبيعي انه بعد ان انتهى من ذكر الاحداث التي انتهت بسقوط خلافة بني امية لم يعد كتابه كتابا في الفتوح ، بل غدا من كتب التاريخ العام ، واستخدم اسانيد جديدة لاخباره واعتمد رواية من امثال المدائني والبلاذري والهيثم بن عدي ، مما يجعل القارئ يشعر وكأن هذا الجزء من الكتاب كتاب جديد لا علاقة له بالقسم الاول الذي كان طابع الفتح واخباره هو الغالب عليه ، حتى انه يعتبر ظهور المسودة في خراسان وزوال بني امية بداية مرحلة جديدة

في التاريخ الاسلامي ، انتهى فيها عهد غلبت عليه الفتوح ، وبدأ عهد طبعته السياسة بظلمها ، وابن الاعثم علوي متشيع يعتبر الثورة العباسية من صنع اناس كانوا يعملون لصالح آل البيت وينقم على بني العباس استلابهم لهذه الثورة ، فيظهر السنوات الاولى من حكمهم وكأنها فترة مجازر هدفنا للثار من الامويين لال البيت عموما . والمدائني غير دقيق في نقل اخبار هذه الفترة فهو انتقائي في سرده للروايات يستقط ما يريد ويحتفظ بما يناسب ميوله . وأيا كان فان في كتابه من المعلومات ما يزيد في زاد الباحث ومعلوماته ، ولكن لابد من الحذر في استعمال هذه المعلومات والتدقيق بما يؤخذ عنه من اخبار .

ويوصلنا ذلك الى الحديث عن كتاب تاريخ الموصل للازدي (المتوفى سنة ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م) ، والذي طبع مؤخرا في القاهرة عام ١٩٦٧ والذي يعتبر من البواكير الاولى في التأليف التي نسميها « بالتواريخ المحلية » . ومعلوم ان هذا النوع من التواريخ ظهر متأخرا عن سواه من أنواع التأليف التاريخي ، وغدا بعد ذلك من الميادين الشائعة التي طرقها المؤرخون المتأخرون (الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ، وابن عساكر في تاريخ دمشق ، وابن تغري بردي في النجوم الزاهرة وسواها) وميزة هذا النوع من التواريخ انه يولي البلد الذي يتحدث عنه اهتماما خاصا من خلال اهتمامه باحداث التاريخ العام . والازدي في « تاريخ الموصل » قصد أن يضع سجلا يبحث في طبقات المحدثين الذين اشتبهوا ، وكانوا من أهل الموصل أو زاروها أو أقاموا فيها (على نمط ابن عساكر في تاريخ دمشق) وقد فقد الجزء الاول من الكتاب ، وبقي الجزء الثاني الذي يبدأ باحداث العام ١٠١ هـ / ٧٢٠ م . وفي هذا الجزء نجد المؤلف يحرص على ذكر الاحداث التي كان لمدينة الموصل اثر هام فيها .

ورغم ان الكتاب من كتب « التاريخ المحلي » فان مؤلفه حرص على ألا يفوته ذكر الاحداث الجسام التي حدثت خارج الموصل ، ولا سيما في منطقة الجزيرة وسواها من اقاليم الدولة الاسلامية . وقد اعتمد الازدي في جمع معلوماته وسردها طريقة المحدثين ، فاعطى لكل رواية سندها . وكان بين رواياته ثقة من امثال : المدائني وأبي معشر ، والهيثم بن عدي وسواهم . وعلى الرغم من ان الازدي يظهر في كتابه ميلا للعلويين الا ان صفة العدالة والضبط تظل غالبية على الكتاب حتى انه يقول في مقدمة بحثه انه « لم يعدل عن الصدق » . ومن تفحص المادة الموجودة في الجزء الذي نشر مؤخرا ، والذي يبدأ بالعام ١٠١ هـ كما اسلفنا ، نجد ان المؤلف قدم لنا معلومات هامة عن الفترة المتأخرة من حياة الدولة الاموية التي كانت خلالها دعوة بني العباس ناشطة . وتوضح الاخبار الواردة عند هذا المؤلف ان العنصر

العربي لعب دورا نشيطا في تأييد الثورة العباسية وانه ساهم مساهمة فعالة في القوة العباسية الضاربة التي حققت النصر لهذه الثورة . كما انا نقرأ عنده ما يظهر الدور الذي لعبته الكتل القبلية العربية وشيوخها في دعم الثورة وايصالها الى جسم الصراع مع الامويين لصالحها ، ويشير الى دور العرب اليمانية ومن كان منهم بين طبقة النقباء في سلم الدعاة العباسيين ، ويؤكد اعتماد الثورة على العنصر اليماني ومعرفة حقه ، هذا فضلا عن الدور الذي كان للموصل في احداث هذه الفترة ، وذكر أسماء اشرفها الذين قتلوا في تلك الاحداث (١٥) . وقد تقل عن الازدي بعض المؤرخين المتأخرين ولا سيما ابن الاثير ، دون ذكر اسمه ، وقد كشفنا ذلك بعد ان قبض لمخطوطة تاريخ الموصل ان ترى النور .

هذا وهناك مصادر اخرى اقل اهمية من هذه التي ذكرنا ولكنها مازالت تنتظر يد المحقق الامين ، ولعل اهمها مخطوطة كتاب الفتن لنعيم بن حماد المروزي الخزاعي (ت ٢٢٨ هـ / ٨٤٣ م) والتي عاش صاحبها زمن المأمون والمعتصم ، ولكنها اقل اهمية من سابقتها على ما يبدو ، لان صاحبها كان يهتم بجمع الاحاديث التي يزعم ان رسول الله كان قد تنبأ بها بفتن ستحدث (١٦) .

ان توافر هذه المخطوطات للباحثين ، وحتى قبل ان تحقق وتنتشر ، كان نقطة البدء في الانعطاف الذي راينا تباشيره عند جب ولويس والدوري ، وسواهم من الباحثين المحدثين ، الذين لبوا دعوة دانييل دينيت الى اعادة النظر في موقف الباحثين الاول ، من امثال فلهاوزن وفان فلوطن وسواهما ، وضرورة النظر بعين الاعتبار الى الدور الذي لعبه المقاومة الخراسانية العرب وقبائل الازد وربيعة في ايسال الثورة العباسية الى النصر .

وجاء بعد ذلك باحثون عرب من بينهم محمد عبد الحى شعبان الذي ذكر في اطروحة دكتوراه قدمها لجامعة هارفرد الامريكية بعنوان : « الجذور الاجتماعية والسياسية للثورة العباسية » ان هدف الثورة العباسية كان « دمج كل المسلمين العرب وغير العرب في الامبراطورية في مجتمع اسلامي واحد لكل فرد من ابنائه حقوق متساوية » (١٧) . وعلى الرغم مما في هذا الافتراض من مقولة قد تكون مقبولة في الظاهر الا ان ما حدث بعد وصول العباسيين الى السلطة ، يثبت ان ذلك لم يتحقق ابدا ، كما سنرى فيما بعد . وجاء بعد شعبان الدكتور فاروق عمر ليعلم « اننا يجب ان نبحث عن اسباب للثورة العباسية في ظواهر اخرى غير ظواهر الصراع بين الفرس والعرب ، او التمييز الاجتماعي والاقتصادي الذي مارسه السلطة الاموية تجاه الموالي ، فقد أهمل المؤرخون المحدثون سياسة الامويين الادارية والمالية في خراسان ، وردود

الفعل لدى أهل خراسان من عرب وعجم تجاه هذه السياسة « (١٨) . وفي موضع آخر يؤكد الدكتور عمر بأن « ظروف خراسان من حيث قبائلها وعلاقتهم ببعضهم وبالسكان المحليين والسلطة المركزية الاموية في دمشق ، أثرت في ايجاد الجو المناسب للثورة دون شك » (١٩) ، وينبه بعد ذلك الى أنه يجب عدم اهمال دور المقاتلة من العرب الذين كانوا يتذمرون بسبب سياسة التجمير (التجميد) ، ولأن الوالي الاموي كان يسلبهم فيثهم وغذاهم في بعض الاحيان ، هذا فضلا عن النزاع المستمر بين شيوخ القبائل العربية في خراسان بسبب طموحهم للحصول على ولاية خراسان وما أدى اليه ذلك من اشمئزاز هذه القبائل ، وشعورها بأن لها في الثورة العباسية املا بحياة أكثر استقرارا ورفاهية (٢٠) . كما أنه يركز على دور العرب الفعال في نجاح الثورة العباسية ، هذا الامر الذي أهمله الباحثون السابقون .

بعد هذا العرض السريع للآراء المختلفة حول هوية الثورة العباسية والعوامل التي ساهمت في صنعها وانجاحها ، والدور الذي لعبه ظهور مصادر جديدة في تفسير مواقف الباحثين ، نقول ان هذا النقاش بين الباحثين واللاحاح على موضوع هوية هذه الثورة ومدى عروبتها أو عجمتها قد انتهى لصالح الفريق القائل باصالة هذه الثورة من حيث كونها عباسية في قيادتها ، اسلامية في شعاراتها ومبادئها . واستقر رأي العديد منهم على أنها قامت على اكتاف عرب خراسان باعتبارهم عصب القوة الضاربة للجيش الخراساني . هذا بالإضافة الى عروبة الخلفاء العباسيين وانتسابهم الى العباس ابن ابي طالب عم الرسول ، وعروبة بلاطهم بما كان يضمه في مطلع دولتهم ، وأهلهم وصحابتهم وقادتهم وولاتهم ، وكلهم عرب أقحاح وشيوخ قبائل عربية تألفتهم السلطة لتألف قبائلهم من ورائهم ، حتى ان بعض الخلفاء العباسيين الاوائل لعب لعبة العصبية القبلية ، اذ تذكر المصادر ان الخليفة المنصور كان يحرص على ضرب القبائل العربية الكبرى بعضها بالبعض الآخر لتتكسر شوكتها ، ولكيلا تكون في دولته مراكز قوى تنازعه السلطان . ومن هذا القبيل كان عمله الدائب منذ تسلمه الخلافة لكسر الحلف بين الازد وربيعه، وقد نجح في ذلك (٢١) . اما كتلة الموالي فلم تكن ذات هوية عرقية معينة، بل كان ولاؤها للخليفة والدولة ، وهذا ما جعل مؤلفا مثل الجاحظ يميز بين (الموالي و (العجم) من جهة ، وبين (العرب) و (العجم) من جهة أخرى . فولاء (الموالي) كان خالصا للدولة ، لا لجنس معين وهذا يعني كما يقول الدكتور فاروق عمر ، « ان التنظيم السياسي للدولة الاسلامية لم يتحول الى تنظيم فارسي يسيطر عليه الفرس ، بل تحول تدريجا من عربي الى أممي ، أي أن الانسان الاساس الذي استندت عليه الدولة الجديدة لم يعد يستند على الاصل الواحد للاستقرابية العربية الحاكمة ، كما كان في عهد الامويين ، بل العقيدة المشتركة : الاسلام » (٢٢) .

ومعلوم ان الثورة العباسية التي اسقطت حكم بني امية ونقلت مركز الثقل السياسي من الشام الى العراق لم تلق ترحيبا من جميع افراد الجماعة الاسلامية او مواطني دولة الاسلام . ففي حين كان البعض يدعو لها ويقوم بأمرها وينتظر على يديها الخير العميم ، كان آخرون يرون في قيامها سقوط العرب وغلبة العجم وعودة الامر ملكا عضوا كسرويا (٢٣) .

واذا اضفنا الى ذلك ان الوعي العربي كان قد دخل دور التعبير عن ذاته قبل ذلك بكثير ، اي منذ عهد الراشدين والامويين ، وان حركة الردة التي استطاع ابو بكر الصديق ان يقمعها بحزمه واخلاصه وايمانه الذي لا يتزعزع بوجوب استمرار الدولة المسلمة الموحدة الاولى التي اقام الرسول دعائمها في المدينة ، ان هذه الحركة انتهت بتوحيد جميع عرب الجزيرة ورص صفوفهم في ظل راية واحدة استطاعت ان تملأ خفاقة فوق امبراطورية مترامية الاطراف ، عربية اللسان والرسالة والعطاء الحضاري .

وبهذا يمكننا ان نعتبر ان حركة الفتح كانت التعبير الحي عن الطاقات الهائلة التي ولدتها الوحدة العربية الاولى ، واجتماع كلمة العرب تحت قيادة موحدة ، استطاعت ان تنشر السيادة العربية وان توسع رقعة الارض العربية ، لاسيما بعد ان اكمل الامويون هذه المهمة القومية بفرض عملية التعريب على مختلف أصقاع الدولة ومؤسساتها الادارية والحضارية المختلفة ، وجاءت الان الدولة العباسية لتوقف هذا المد العربي ولتغلي التمييز بين العرب وغير العرب في دولة اممية تزداد فيها أهمية العنصر العباسي وتتمازج فيها الدماء العربية بدماء غير عربية ، ولا يستثنى من ذلك الخلفاء العباسيون انفسهم الذين غدت غالبيتهم من أبناء (أمهات ولد) .

وقد تعارف المؤرخون على اعتبار دولة الامويين دولة عربية ، ووصف عصرهم بأنه العصر العربي الامثل ، وهذا الجاحظ يقول : دولة بني العباس اعجمية خراسانية ودولة بني مروان اموية عربية ، ويثني المسعودي على قول الجاحظ هذا فيعتبر انه « باستخدام العباسيين للموالي سقطت قيادات العرب وزالت رياستها وذهبت مراتبها » (٢٤) ، ولكننا نرى ان تبلور الوعي العربي وتعظيم اهتمام أصحابه به كان بعد العصر الاموي حين تعرض العرب لازمات كان اولها تضائل دورهم في الحياة السياسية للدولة وتدهور سلطانهم واستيلاء افراد وشعوب غير عربية على مقاليد الامور وتربعها مكان الصدارة في السياسة والمجتمع . ووضح كيد هذه الشعوب الغريبة في الحركات الانفصالية والثورات المسلحة التي قامت بها ضد الدولة العربية في ظل الاسرة الحاكمة الجديدة ، وفي الحركتين الفكريتين الهدامتين : الشعبوية والزندقة .

ورغم انه لا يدخل في نطاق هذا البحث الحديث عن هذه الثورات والحركات الفكرية ، الا انه لابد لنا ان نذكر انه كان لها دور كبير في بلورة فكرة عربية وشخصية عربية تعني ذاتها وتشعر بحدة الهجمة المقصودة التي تتعرض لها بهدف ابادتها والاجهاز على كل منجزاتها . ويتضح هذا الذي نزعم بصورة اكمل اذا ما تذكرنا التلازم والصلة الوثيقة بين الحركة الشعبوية والزندقة من جهة ، وبين هاتين الحركتين والثورات العرقية المسلحة والحركات الانفصالية التي ظهرت في الاقاليم الاعجمية من جهة أخرى . فالشعبوية التي هدفت الى ضرب الكيان العربي والانتقاص من كل ما كان للعرب من مزايا ومفاخر بما في ذلك انتماء الرسول الى الجنس العربي ، والزندقة التي رمت من زاوية أخرى الى تهديم القاعدة التي يستند اليها السلطان العربي وهي الاسلام ، للترادف بين العروبة والاسلام في نظر الشعوب المختلفة التي دخلت في ظل الحكم العربي واعتنقت الاسلام ، كانتا النسم المسموم الذي وجه الى الصدر العربي منذ بدايات الحكم العباسي . وما لبثت ان بدأت حركات مريبة ، كالراوندية والخرمية وحركة المقنع الخراساني ، وسواها ، تطل براسها لتعمل في الجسد العربي نخرا وتخريبا . ورغم وعي السلطة العباسية لخطورة هذه الادواء ، ومحاولتها خنقها في مهدها ، الا انها لكثرتها ولعظم ما احتاجته من جهد ومال ورجال ، خلفت آثارا اقلها انفصال اقاليم عديدة عن الدولة العربية بتدبير فئات غير عربية تحكم باسم الخليفة العباسي ولا تعطيه من مظاهر السلطان الا الخطبة والسكة والطراز ، وكثيرا ما كانت تحجبها عنه . وقد وضع هذا الصراع اكثر ما وضع في العراق ، قلب الدولة العباسية والذي كان منذ القديم ساحة صراع سياسي وثقافي واجتماعي بين السامية والآرية ، وغدا الآن مسرحا لصراع مماثل بين العروبة والعجمية ، لبروز العرب كقوة بديلة على مسرح السياسة الدولية .

وليس من شك في ان الثورة العباسية بما عبأت من قوى عرقية وبما استقطبت من تقمات كامنة ، وما أفسحته لها من مجالات للعمل ، كانت المسؤولة مسؤولية غير مباشرة عن هذا الخلل في ميزان القوى والذي مال لصالح العناصر غير العربية . على ان هذا لا يعني ان المسؤولية بكاملها تقع على كاهل هذه الثورة ، لان انفلات هذه القوى العرقية الناقمة من أسر اغلالها السابقة ، وبما كان يعتمل في قلبها من احقاد ، كان اقوى من ان تقدر السلطة العباسية على ضبطه واعادته الى خضوعه القديم . وقد يكون من الجائز ان نضيف ان السلطة العباسية لم تقدر في هذه المرحلة المبكرة من تسنمها المسؤولية السياسية الاخطار التي ستترتب على الاستعانة بهذه القوى . وهكذا فقد كان هذا الصراع العرقي اقوى واعمق أثرا من مجرد ظاهرة تبديل أسرة حاكمة بأسرة حاكمة سواها . انه بركان حبيس أتيح له أن يتفجر في لحظة ضعف فظني ودمر ، ولم يكن من السهل الوقوف في وجهه .

وهنا لابد لنا أن نشير الى أن هذا الصراع المبرر بين العرب وغير العرب لم يكن شرا كله ، اذ انه ساعد على بلورة فكرة « امة عربية » متميزة عن بقية شعوب الدولة الاسلامية ، وعمق وعيها لذاتها وخصوصيتها ، وسار بها شوطا طويلا تلازم فيه الوعي القومي بالاطار العقائدي للانسان العربي . وقد استمر هذا الصراع في تعميق الوعي القومي على مر العصور ، وانتقل الوعي العربي من صعيد طبقة محدودة الى صعيد شعبي ضم قطاعات واسعة ترص صفوفها على الدوام وتوجه جهدها في سبيل التحرر والانعتاق .

وكان اول مظاهر هذا الوعي التأكيد على اللغة العربية ، واحلالها محل الصدارة في المجتمع والدولة والفكر ، ورغم كل الاعاصير التي ضربت العرب كعنصر قائد في الدولة الاسلامية ، فقد استطاعت العربية أن تصمد وأن تحفظ وجهها عربيا للدولة ، رغم عجمة العديد من القائمين عليها . وطبيعي ، في دراسة كهذه ، ألا نسرف في شرح أبعاد واثار هذه الظاهرة ، ولكن لابد من التنويه بان كل من حمل راية معارضة العروبة ، نطق بلسان عربي واختبأ وراء ستار مزور مما تنزل في القرآن العربي . وفي هذا ما يكفي .

وقد يكون مهما في هذه المرحلة من بحثنا ان نتساءل عن الاسباب التي تكمن وراء هذا التحول الذي طرأ على حال العرب في ظل دولة بني العباس ، التي بدأت حياتها وهي تلوح عاليا بهويتها العربية معتزة بها ، وبالدعم العربي الذي أوصلها الى سحق بني أمية والتربع على كرسي السلطان ، بما قدمه لها يمانية خراسان وربيعتها ومضريتها من قوة ضاربة قاتلت تحت الراية السوداء ، وما اخذ يشعر به هؤلاء العرب بعد امد غير طويل من قيام الدولة من غربة في دولتهم وجأرهم بالشكوى مما آلت اليه حالهم ؟ وفي هذا التساؤل الذي نطرح يكمن التناقض بين انصار الراي القديم الذي يقول بعجمة الثورة وانصار الراي الجديد الذي يقول بعروبتها . ويستطيع أصحاب الراي القائل بعجمة الثورة ان يستغلوا الاخبار التي نجدها في مصادرها حول تدمير العرب وثوراتهم منذ الدور العباسي الاول كدليل على صحة نظريتهم . وفساد رأي القائلين بان العرب عموما ، وعرب المشرق خصوصا ، هم الذين أوصلوا الثورة الى نهايتها السعيدة ، ومن أجل الفصل في هذا الموضوع لا بد لنا من ان نتذكر الامور التالية :

اولا : ان القول بعروبة الثورة لا ينفي الدور الكبير الذي لعبته بقية العناصر غير العربية للوصول بها الى النصر وتسلم مقاليد السلطة . ويكفي ان نستعرض القوائم التي يقدمها لنا صاحب أخبار الدولة العباسية (٢٥) ، بأسماء النقباء ونظرهاء

النقباء والدعاة حتى يتبين لنا ان القائمين على الثورة كانوا عربا وغير عرب وان الذي يربط بينهم هو العمل المشترك لاسقاط بني امية وايصال بني العباس الى الحكم ، وان الرابطة العرقية لم يكن لها دور في تسميتهم ، وانه كان لهم في ذلك مصلحة مشتركة .

ثانياً : كانت خراسان معقل الثورة ومستقر رجالاتها ، ويحار المرء في سبب هذا الاختيار . ويبدو ان هذه الحيرة قد وقرت في نفس بعض كبار رجالات الدعوة الاول من امثال سالم بن بجير (سالم الاعمى) الذي دار بينه وبين محمد بن علي الحوار التالي :

« ولما اجتمع محمد بن علي على توجيه ابي عكرمة الى خراسان قال له سالم : ليس لنا ان نستبد بأمر دونك ولا نسبقك ونحن ناتم بك ، وقد احببت ان استأذنك في شيء قد كنا راينا فخالفنا فيه بكثير اذ نحن بالكوفة ، قال : فهاته وما احب ان تخالفوا بكيرا فانه يحب آل محمد ، وهو ذو رأي . قال : كنا نظرنا في امرنا هذا فرايناك قد حلت بين اهل الشام ، وراينا لاهل الشام دولة وجماعة ونجدة فيهم ظاهرة ، فراينا ان نبث دعوتك فيهم ، ندعو منهم من طمعنا في اجابته ، فكره ذلك بكير وخالفنا فيه . قال محمد : اصاب بكير واخطاتم ابي الله ان يأتي بالشمس من المغرب ، واحب ان يأتي بها من المشرق ، وان اهل الشام اعوان الظالمين وآفة هذا الدين ، وشيعة الملاحين ، وقد ابتعثوا بنصرة بني امية ، واغرى اكثر اهل العراق بمشايعة بني ابي طالب ، وقد خصنا الله باهل خراسان ، فهم انصارنا واعواننا وذخائرنا ، وقد حلت عليهم من الله رحمة قد غشيتهم ، ويوشك ان تتبعهم ربح الحياة فتعز ذليلهم ، وتقوى ضعيفهم ، وتقتل من قاتلهم ، حتى يعز دين الله ويظهر الحق واهله ، يقول الله عز وجل : (انزل من السماء ماء فسالت اودية بقدرها) فكأنكم بالاودية قد سالت رجال خراسان اشد في طاعتنا من زبر الحديد ، أسماؤهم الكنى ، وانسابهم القرى ، يقدمهم النصر ويحوظهم العز ، من غير اهل خراسان ، فانه ليس لكم بغيرها دعوة ولا من غير اهلها مجيب » (٢٦) .

ويتضح من هذا الحوار ان سالم بن بجير الذي كان من كبار رجالات محمد بن علي وموضع ثقته استغرب موقف بكير بن ماهان من اهل دمشق ومحاولته ابعادهم عن الدعوة ، على الرغم من ان بكيرا كان من موالي بني مسلمية ، وكان يسكن بالاردن من الشام ، وكان من اهل الديوان قبل ان يغزو مع يزيد بن المهلب خراسان ويدخل معه جرجان حين فتحت (٢٧) . ومع ان سالما لا يطلب من محمد بن علي ان يشق بجميع اهل الشام وان يطلعهم على اسرار الدعوة ، وان يقتصر في ذلك على الثقة منهم الذين يطمع في اجابته ، ولكن محمدا يرفض وينعت اهل الشام بنعوت قاسية ، ويؤكد ان الله قد خصهم (اي بني العباس) باهل خراسان ، وان رحمة الله ستعز ذليلهم وتقوى ضعيفهم ، وكان في ذلك اشارة الى فئة خاصة من اهل خراسان هي

فئة الاذلاء والضعفاء التي كانت عصب الجماعة المؤيدة للحركة العباسية . كما انه لا يمكن ان يفهم من وصف محمد بن علي للرجال الخراسانيين المؤيدين لبني العباس بان « اسماءهم الكنى » بانهم كانوا من العرب فقط ، لان زعماء الدعوة من العباسيين كانوا يكون الموالي من رجالاتهم ، وهذا بكير بن ماهان الذي كان يكنى « بأبي هاشم » و خالد بن عثمان مولى خزاعة الذي كان يكنى بأبي اسحق ، وابو مسلم الخراساني ، وسواهم كثير . اما قوله بان « انسابهم القرى » ف دليل واضح على تخليهم عن النسب بالعصبية ، واستعاضتهم عن ذلك بالولاء للجماعة المدنية المتمثلة بالقرية التي يقطنونها . وعندنا ان هذا التخلي عن العصبية القبلية وتحويل الولاء الى الحركة السياسية الجديدة كان نتيجة قهر اجتماعي واقتصادي كبيرين ، عاشه في تلك المنطقة عرب وغير عرب ، جعل الشعور العصبي يتضاءل امام الآمال المعقودة على نجاح الثورة والوصول الى الفردوس الارضي المنشود ، كما انه دليل على انصار عرب خراسان المؤيدين لدعوة بني العباس بسواهم من سكان هذا الاقليم من اخلاط الامم اللذين كانوا يؤيدون هذه الدعوة ، الامر الذي ادى الى انتساب الناس الى القرى التي يسكنون لا الى الدماء التي تجري في عروقهم .

ثالثا : ويقودنا ما قلناه في الفقرة السابقة الى الاعتراف بانه لا يمكن لباحث في موضوع نجاح ثورة بني العباس وسقوط حكم بني امية ان ينكر اثر العوامل الاجتماعية والاقتصادية في نجاح هؤلاء وسقوط أولئك ، كما انه لابد ان نلاحظ ان الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية المتردية لم تكن حال فئة الموالي فحسب في الايام الاخيرة لحكم بني امية ، بل كانت كذلك حال الكثيرين غيرهم من العرب ايضا . واذا ما استبعدنا بعض الفئات الارستقراطية العربية القديمة او تلك التي نشأت وترعرعت زمن الحكم الاموي ، وفئة الدهاقين من رجال الاقطاع الفارسي القديم والتي استمر نفوذها في ظل بني امية ، لوجدنا ان النعمة الاقتصادية والاجتماعية التي سادت بين الكثيرين آنذاك ، والتي ضمت العديد من رعايا الدولة ، عربا وغير عرب ، كانت من اهم عوامل نجاح هذه الثورة التي علق عليها الناقمون آمالا عراضا في عدالة لم يحصلوا عليها في ظل البيت الاموي . وحين فشل الحكم الجديد في تحقيق هذه العدالة ، ولا سيما لهذه الفئة المحرومة من العرب التي كانت عصب الثورة ، رفعت رايات العصيان مجددا ، لا سيما وان عوامل جديدة اخرى ، سنشير اليها في حينها ، جعلت الشكوى تتعاظم فعاد الذين ثاروا بالامس لرفع الظلم ، ليثوروا مجددا للغرض نفسه (٢٨) . فقد تبين لهؤلاء ان ما كان يدعيه العباسيون من انهم ثاروا « لظاهر العدل ، وانكار الجور ودفع الظلم عن الضعفاء واخذ الحق من الاقوياء » ما هو الا ضلال لا يمانئه الا ما كان يفعله ابو مسلم الخراساني حين كان يحرق الاسرى من الجيش الاموي ويعاملهم معاملة حسنة ويعيدهم الى معسكر نصر بن سيار ليحدثوا اخوانهم بما لقوا على يدي ابي مسلم وجماعته (٢٩) .

على ان الانحراف الذي حدث في دولة بني العباس لم يكن دونما مبرر ، ويستطيع الباحث في أحوال الدولة في طور نشوئها واستقرار امرها ان يستخرج العوامل التي حرقت الدولة عن مسار الثورة التي أوصلتها للحكم ، وأوجدت الوحشة بينها وبين بعض رعاياها من العرب الذين كانوا عضداً قويا أمدوها بالدماء والمهج التي حققت النصر على خصومها الأمويين . فلا بد أولا من أن نذكر ان القضية الاقتصادية والاجتماعية لسكان خراسان كانت ماثلة في ذهن الرواد الأوائل للحركة العباسية . وليس ادل على هذا من قول محمد بن علي في وصف أهل خراسان الذين اعتمدهم عصب ثورته : « وما يزالون يدلون ويمتهنون ويظلمون ويكظمون ويتمنون الفرج ويؤملون » (٣٠) . فهؤلاء الذين كانوا على هذا الحال والذين انضموا للثورة بأمل الخلاص لم يتحقق لهم الحلم الموعود . اذ ما كادت الدولة تستوي على اقدامها ، حتى وضع لهم انها ليست الفردوس الذي حلموا به وظنوا انهم سيتظللون افياءه اذا ما كتب النصر لبني العباس . ومعروف ان التركيب الاجتماعي للدولة الاسلامية في عهدها الجديد ، وبعد ان ارتفع نير السيطرة العربية عن رقاب رعاياها ، غدا تركيبا لا تجانس فيه تنقسمه المطامع القويّة والعرقية لتعمل يد التخريب في جسد الدولة ووحدتها السياسية والاجتماعية ، هذه الوحدة التي كانت مظهرها واضحا من مظاهر الحكم زمن بني امية ، ولا سيما خلال فترات القوة ايام معاوية وعبد الملك وهشام وسواهم . وقد ادت هذه الظاهرة الجديدة الى توزع اهواء رعايا الدولة من غير العرب ، وانعدام التجانس بينهم ، واستعدادهم للاستجابة لكل صرخة او حركة اعتقدوا ان فيها تنفيسا عن كربهم او املا بنجاتهم ، حتى وصل الامر ببعضهم الى الارتداد الى الماضي الجوسي ، ومحاولة احياء ما كان الاسلام قد اقتلعه من جذوره من ارث ماضيهم وموروث كفرهم . ولسنا نرى في هذه الردة موقفا دينيا او قوميا فحسب كما يحلو للبعض ان يفسره ، ولكننا نرى فيه ايضا تعبيرا عن نقمة اجتماعية واقتصادية كانت تعتلج بقوة وشراهة في نفوس هؤلاء المرتدين ، لاسيما وان السلطة العباسية لم تكن وفية لمبادئ المساواة والعدالة التي اطلقتها حين كانت تخطب ود المحرومين وتعد بعدالة لم تتحقق على يد الامويين . وخير مثال على هذا الذي ندعيه ، تفحص واع لبعض اخبار الثورات التي قامت على السلطة العباسية منذ ايامها الاولى ، ومنها ثورة السودان في المدينة زمن ابي جعفر المنصور والتي تقدم مثلا واضحا على ما اصاب المحرومين من خيبة امل في الحكم الجديد جعلهم يحملون السلاح في وجهه (٣١) .

واذا حاولنا تتبع جميع الحركات التي قامت في العصر العباسي الاول واعتبرت في عرف العديد من المؤرخين بانها حركات عرقية معادية للعرب ، ودرسنا تفاصيل أحداثها لوجدنا فيها ، الى جانب العوامل العرقية والقومية ، روائح نقمة اقتصادية واجتماعية عملت على جذب اعداد كبيرة اليها . وقد جرت عادة المؤرخين الذين

يجنحون الى التفسير العنصري ان يجعلوا نقطة البدء في هذا النوع من التحركات مقتل ابي مسلم الخراساني ، ويتحدثون عن حركة سنباذ ، الذي خرج بخراسان بعد مقتل ابي مسلم سنة ١٣٧ هـ مباشرة للطلب بدمه . ان حركة سنباذ الذي تزعم المصادر انه كان مجوسيا ومن اتباع ابي مسلم والتي انتشرت في نيسابور وقومس والري ، تطرح العديد من القضايا والتساؤلات التي لا نجد في مصادرنا اجابات عليها ولا مجال لبحثها هنا .

وتتوضح هذه الصورة بابعادها الاقتصادية والاجتماعية تارة ، والعرقية تارة اخرى عند استعراضنا للحركات المماثلة التي حدثت في هذا الدور ، كحركة الراوندية الذين خرجوا زمن ابي جعفر المنصور ، وكانوا من اهل خراسان ، وعلى رأي ابي مسلم صاحب دعوة بني هاشم . ولكنهم وبعد مقتل ابي مسلم جهروا بقولهم بتناسخ الارواح ، وزعموا ان روح ادم حلت في عثمان بن نهيك .

على ان هذا الموقف من جانب ابي جعفر سرعان ما تبدل . ولا سيما حين ادرك ان ما يقولون بالسنتهم ما هو الا تزيف لما في نفوسهم من نقمة على الاسلام ، مصغر عزة العرب ومرتكز سيادتهم فحاولوا ان يأخذوا بظاهرة لينسفوا جوهره ، ولكن اللعبة مالبثت ان انكشفت لابي جعفر ، وكان ما كان من قتلهم وافنائهم .

على ان حركة الراوندية تظل رمزا بما حملته من مظاهر ثلاثة توافرت فيما سبقها وما سيتلوها من حركات :

- ١ - هويتها الخراسانية .
- ٢ - حقدها الدفين على العرب .
- ٣ - حربها على الاسلام ومحاولة تشويه مبادئه وتزييفها من الداخل .

وهنا لابد لنا ان نلاحظ ، ان خراسان لم تكن في هذه الفترة من تاريخها خالصة لبني العباس ، بل كان لشيعه علي بن ابي طالب فيها دعاة ورجال يكيدون لبني العباس ويحاولون استمالة الناس لهم . وقد زاد هذا الصراع العباسي الشيعي من ضعف الموقف العربي فيها ، كما زاد من الفوضى العقائدية الاسلامية ، في بقعة لم يكن ولاؤها في الاساس خالصة للاسلام .

واذا استعرضنا اهم الازمات التي كانت تواجهها الدولة في هذه المرحلة من تاريخها ، فيما كان يعرف باسم بلاد ماوراء النهر ، لوجدنا انه لم يكن يمر يوم دونما

انتفاضة في اقليم من الاقاليم او مدينة من المدن ، او دونما ثورة يحركها زعيم محلي ، وحتى ان القادة والولاة الذين كانت ترسلهم الدولة ليمثلوها في تلك الاصقاع كانوا ، وبعد مرور فترة قصيرة على تسلمهم السلطة ، يرفعون رايات العصيان وتغريهم الاطماع الشخصية على اعلان الانفصال عن جسد الدولة .

وكان هم الدولة اليومي هو وضع حد لهذه الحركات والثورات والانتفاضات ، الامر الذي جعلها تنزف نزيفا دائما ، وما تكاد تسد خرقا حتى تواجه بخرق ادهى وامر . اذا أضفنا الى كل ذلك ان الغالبية العظمى من سكان تلك الاصقاع لم يكونوا قد اسلموا بعد ، او ان الكثير ممن اسلم منهم كان ايمانه اما ضعيفا او مشوها لاختلاطه بالعقائد المحلية القديمة ، لوجدنا ان الارض كانت مهيأة لهذا النوع من المشاكل التي شغلت الدولة على الدوام ، وقد زاد هذا الوضع حدة السيرة السيئة للعديد ممن وسدت اليهم القيادات والولايات في تلك الاصقاع ، كما ان اطماعهم بما تفيض به تلك البلاد من خيرات وتسخيرهم لطاقتهم وسلطانهم لجني اكبر ما يمكن من كسب ، كانت كلها عوامل في جعل هذه المنطقة منطقة تفجر دائم ، ومخزن حقد لا ينضب على الذين كانت تدار الدولة باسمهم ، الا وهم الخلفاء العباسيون .

ان اهم ما يلاحظه المتتبع لاحداث هذه الفترة من فترات تاريخنا ، هو هذا الفارق الكبير بين الاهداف التي أعلنتها ثورة بني العباس على اسلافهم من بني أمية ، وبين التطبيق العملي لهذه الاهداف في السياسة اليومية ، وفي الاطار العام لسياسة الدولة .

فقد سار العباسيون بعد ان غدوا اصحاب السلطان شوطا ابعد في التنكر لشعارات ثورتهم اذ انهم وجدوا ان اعتمادهم في اثبات حقهم على وصية ابي هاشم يجعلهم يظهرون وكان المبرر الوحيد لوجودهم هو ارتباطهم بآل علي ، وان حقهم في ولاية امور المسلمين مرتبط بقرباتهم لابناء علي فقط ، وهذا ما لا يقيم لهم دولة ، ويجعل آل علي ، وهم احياء يبرزون ، احق بارثتهم عن ابيهم .

كما ان ارث الكيسانية يفضح ارتباطهم بحركات القلو والتطرف والسرية ، وهم يودون كسب ود الفقهاء وعامة الناس ، ويودون بناء دولة تقوم على اساس من حق عمومهم لرسول الله من جهة وثورتهم على « اهل الجور » اي الامويين ، وما يستتبع ذلك من عدالة ومنع للظلم وارساء لقواعد الشرعية والسنة النبوية ، من جهة اخرى . وهكذا غدا الاساس الديني لدعوى الحق العباسي في الحكم هو ان العباس عم الرسول (ص) وانه وريثه بعد ان انتقل الى جوار ربه . وسار العباسيون في عملية التحويل هذه بخطى وثيدة استمرت منذ عهد ابي هاشم الى محمد العباسي ، وحتى خلافة المنصور .

واذا تركنا هذا المظهر الاول من مظاهر مخالفة العباسيين للاهداف المعلنة لثورتهم من حيث علاقتهم بال البيت من العلويين ، وانتقلنا الى امر آخر من الامور المعلنة في خطة الثورة العباسية واهدافها ، وهو الاعتماد على العنصر العربي ، والذي يتجلى في قول ابي مسلم الخراساني :

« امرني الامام ان انزل في اهل اليمن ، واتألف ربيعة ، ولا ادع تصيبي من صالحي مضر ، واحذر اكثرهم من اتباع بني أمية ، واجمع الي العجم » (٣٢) . وقوله « فقد امرنا الامام باختصاص اليمن » (٣٣) . هذا فضلا عن النقاش الطويل الذي اسلفنا الاشارة اليه حول هوية الثورة العباسية ، والذي جنح فيه الباحثون المحدثون الى القول بأن جهد الدعوة العباسيين في خراسان كان موجها بصورة رئيسية للعرب : مقاتلتهم ومستقرهم . « فقد كان هناك دعاة عباسيون في قرى مرو حيث استقر العرب وفي كل مدينة فيها حامية عربية ، لقد أدرك الدعاة بأن العرب وحدهم مصدر السلطة والقوة الضاربة الوحيدة في خراسان ، ومن أجل الوصول الى السلطة يجب أولا كسبهم الى الدعوة العباسية » (٣٤) و « ان سند ابي مسلم الرئيسي جاء من العرب المستقرين في مرو وضواحيها الذين ادركوا بأن لا مفر من الثورة من أجل تغيير جذري لابي خراسان وحدها ، بل في كل الامبراطورية » كما يقول عبد الحي شعبان (٣٥) . وكان جهد هؤلاء الباحثين منصبا على تغيير التفسير العنصري الذي قال به فان فلوطن وسواه ، الذي يرى في هذه الثورة ثورة عنصرية ايرانية ضد السيادة العربية في الدولة ، ومحاولة منهم لابرار دور عرب المشرق في هذه الثورة . وسأترك الجانب الاجتماعي والاقتصادي من نظريتهم الى فقرة لاحقة ، لانطلق من هذا المنظور القومي العربي للعناصر التي قامت بالثورة ، وناقشه في ضوء الاحداث السياسية التي طبعت هذا الدور العباسي الاول بطابعها .

ان الباحث المدقق في الاحداث السياسية لهذا الدور يلاحظ قيام العديد من الثورات ذات الهوية العربية ، بقيادتها ورجالها ومضمونها . وكان الذين قاموا بهذه الثورات ، على كثرتها وخطورتها في فترة زمنية قصيرة ، كانوا يرون في حكم بني العباس حكما لم يف بوعوده للعنصر العربي الذي كان عماد ثورتهم ، ففي الفترة الاولى من حكم هذه الاسرة ، كان طبيعيا ان تثور الشام رغم القهر والقمع الشديدين اللذين تعرضت لهما ، ولكن الامر تجاوز ذلك بعد فترة قصيرة ليغدوا شعورا عاما ينتظم جميع القبائل القيسية التي شعرت ان الحكم العباسي يحابي اليمانية على حساب القيسية ، لتحل محلها ثورات يمانية على الرغم مما بين اليمانية والثورة العباسية من حلف اكدته جميع مصادرها . ورغم انه لا يدخل في نطاق هذه الدراسة

التي تأخذ بالتعميم لا بالجزئيات ذكر تفاصيل هذه الثورات ، فلا أقل من أن نذكر أن اهتمام شأن العرب في الدولة غدا من السمات المميزة للعمل السياسي الى الحد الذي دعا قيسا ويمنا الى الثورة على السلطة العباسية في كل مرة تسنح فيها الفرصة وتعاظم الشكوى . فكانت ثورة نصر بن سبث العقيلي عام ١٩٨ هـ ، والتي بررها بقوله انه لا يكره بني العباس وانه لا يقاتلهم الا لانهم انحرفوا عن العرب واعتمدوا على الاعاجم . وكذلك الحال بالنسبة للثورة التي قامت في حوران والبثنية زمن عبد الله بن علي وثورة ابي الورد والسفياني في حمص وتدمر وحلب وشمال الشام ، وثورة الجزيرة برئاسة اسحق بن مسلم العقيلي ، وثورات دمشق التي استمرت حتى خلافة المتوكل عام ٢٤٠ هـ ، وثورات لبنان وحمص التي لعب فيها البيزنطيون دورا محرضا ودامت حتى خلافة المتوكل ، وثورات فلسطين والاردن التي توجتها حركة المبرقع اليماني عام ٢٢٦ هـ والتي انضم اليه فيها ما يزيد على المئة الف رجل واستمرت حتى خلافة المعتصم .

ان استقراء اسباب واحداث هذه الثورات يوضح انها بدأت منذ الايام الاولى لانتقال السلطة لبني العباس ، وان اسبابها المباشرة كانت مخالفة السلطة العباسية الجديدة لما أعلنته من مبادئ ويتجلى هذا الذي ندعيه فيما نقرأه في كتاب العيون والحدائق عن ثورة شريك بن شيخ المهري على ابي مسلم الخراساني سنة ١٣٣ هـ . يقول صاحب العيون والحدائق : « وفيها (اي في العام ١٣٣ هـ) خرج شريك بن شيخ المهري على ابي مسلم ببخارى ، وقال : ما على هذا بايعنا آل محمد ، على أن تسفك الدماء ، ويعمل بغير الحق ، وتبعه على رأيه أكثر من ثلاثين ألفا . . . وخرج جماعة على ابي مسلم فقتلهم بعد حروب كثيرة » (٣٦) . وقد أهمل بعض الباحثين المحدثين أمر هذه الثورات العربية في الدور العباسي الاول وظنوا انها لم تقم الا في بلاد الشام ، وانها كانت تعبيرا عن نقمة أهل الشام على العباسيين بسبب حرمانهم من المكاسب التي كانت لهم في عهد الخلافة الاموية ، ولابتعاد مركز الخلافة عن دمشق . ولكن تتببع الاحداث واستقصاء ما في مصادرنا من اخبار يظهر أن هذه الثورات كانت لا تقتصر على الشام فحسب بل تقوم في اغلب اصقاع الدولة الاسلامية . فهذه ثورة الامير احمد بن محمد العمري ، المعروف بالاحمر العين ، ببلاد اليمن (٣٧) ، وهذه ثورات واضطرابات الحجاز واليمامة التي قام بها بنو سليم من قيس عيلان وبنو هلال وبنو مرة وفزارة وغطفان ، وسواهم من القبائل العربية التي شغلت الخلافة العباسية ردحا طويلا من الزمن خلال حكم الواثق ، وبعد أقل من قرن على تسلم بني العباس السلطة ، وكانت كلها تعبيرا عن النقمة العربية على التوجه الفارسي للدولة وانحسار سلطان العرب عنها . وهذا هو نصر بن سبث سيد بني عقيل ورافع راية العروبة مع الامين يقولها

مجلعة لرسول المأمون اليه حين جاءه يطلب اليه أن يقلع عن ثورته بعد مقتل الامين
ويضع السلاح الذي شهره في وجه الدولة لما رآه من تنكرها للعنصر العربي وميلها الى
الفرس : « فصاح (أي نصر) بالخیل صيحة فجالت ، ثم قال : ويلي عليه (أي على
المأمون) ، هو لم يقو على اربعمائة صفدع تحت جناحه (يعني الزط) يقوى على
حلبة العرب » (٣٨) .

ولم تكن مصر أقل تحسسا لهذه الوحشة التي قامت بين خلفاء الدور العباسي
الاول وأصولهم العربية ، فقامت فيها ثورات عربية كان أكبرها وأكثرها خطراً ثورة
عبيد الله بن السري بن الحكم زمن المأمون ، مما اضطر هذا الخليفة لأن يعهد
بقمعها لامهر قواده عبد الله بن طاهر ، وكافاه على نجاحه في القضاء عليها بتوليته
مصر (٣٩) . وهكذا فان العنصر العربي الذي كان عماد الثورة العباسية على ما تذكر
المصادر الاولية والدراسات الحديثة ، وجد نفسه يتراجع الى المحل الثاني في الدولة ،
الامر الذي دعاه الى اشهار السيف في أكثر من مناسبة محاولا رد الامور الى نصابها ،
واحتلال المكانة التي لم تعط له منذ اليوم الاول لوصول العباسيين للسلطة . ولن يطول
الامر بالعنصر العربي حتى يبعد نهائيا عن المسرح السياسي وتبدال دولته ما قام
للعباسيين أمر . وسيحل محله كما هو معروف ، ومنذ خلافة المعتصم ، العنصر التركي ،
ثم سواه من شعوب غير عربية كالديلم والسلاجقة وسواهم .

وعندي أن هذا الذي آل اليه حال العرب في دولة بني العباس كانت له بوادره
وما يدل عليه منذ الايام الاولى للثورة ، وقبل أن تحقق نصرها على بني أمية . فرغم
انضمام بعض عرب المشرق اليها واندفاعهم في نصرتها ، فقد شعروا ، ومنذ ولاية نصر بن
سيار على خراسان ، وقيام أبي سلمة الخلال بالامر لبني عباس في مرو ، أن دورهم
لن يكون الا ضئيلا و ثانويا . « فاضطرب أمر العرب بخراسان ، وتعصبوا وتحذروا
واقبتلوا وهم متحIRON » ، كما يقول صاحب كتاب « أخبار العباس وولده » وهكذا ،
فالريية قديمة والشك قائم في نفوس العرب منذ تلك الفترة المبكرة ، وجاءت تصرفات
وأفعال من وسدت اليهم الامور من آل العباس ، لتؤكد هذا الشك ، فكانت الثورات
العربية للاسباب التي أوضحنا ، وعلى النحو الذي أسلفنا ، حتى بلغ الامر بعضهم
الى اعلان الاستقلال بما تحت ايديهم من أرض وجباية الخراج وتعيين الوزراء ، كما
كان الحال في ثورة نصر بن شبث سيد بني عقيل التي سبقت الاشارة اليها (٤٠) .

واذا ما انتقلنا الى الميدان العقائدي ، فقد أعلنت الثورة العباسية في أكثر من
مناسبة وعلى لسان أكثر من زعيم من زعمائها ، منذ الفترة السرية وحتى آلت اليها

السلطة خالصة لا ينازعها فيها من منازع ، ان الثورة انما قامت لتقاتل « قوما حرفوا كتاب الله وبدلوا دينه ، وتولوا عن امره » (٤١) ، كما انها عازمة اصدق العزم « على اتباع كتاب الله وسنة نبیه » . وندد زعمائها « بأهل الجور » (اي الامويين) الذين فشلوا في تطبيق مبادئ العدالة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر » وهكذا فقد تبرأ العباسيون من كل العناصر وخاصة المتطرفة منها التي ساندتهم في ثورتهم (٤٢) .

ولكن هذا الادعاء لم يدم طويلا ، وجاءت الاحداث في هذا الدور لتثبت ان الالتزام بكتاب الله وسنة رسوله ، لم يكن الامر المطبق دائما ، ولا سيما حين آلت الخلافة الى المأمون الذي نستطيع ان نعتبر فترة حكمه بداية مرحلة جديدة في تاريخ الفكر الاسلامي اتسمت بسمات ظاهرها الحرية الفكرية ، ولكنها كانت حصيلة مخاض فكري طويل ، وثمره طيبة حيناً ، وخبيثة حيناً آخر ، من ثمار التلاقح الفكري بين الامم المختلفة التي عاشت على ارض الدولة الاسلامية وحملت معها اراثها الفكري وما تحصل لها من سالف حضاراتها ودياناتها ، كما حملت احقادها القديمة ورغبتها في الانتقام من هذا الدين الذي أعز العرب وأشاد لهم دولة وحضارة ورثت دولهم وحضاراتهم .

ولست أريد وأنا اضع خاتمة لهذا البحث أن ادخل في تفاصيل الفوارق الاجتماعية والاقتصادية التي كان يعاني منها المجتمع العباسي في هذا الدور الاول وما تلاه من ادوار ، واثر هذا كله في توجيه احداث هذه الفترة ، وجهة غدت فيها حركة العيارين والشطار في القرن التالي حركة لها وجه اجتماعي واقتصادي ، فكانت الاغارة على الاسواق ونهب اموال الاغنياء ، من السادة والتجار ، تبرر وتحمد لان بعض هذه الاموال المنهوبة كان يعطي للفقراء والمحرومين ، ولهذا موضع آخر ، ارجوان يتاح الى تناوله في بحث قادم ، ولكنني اود ان اذكر بأن طبيعة الظرف الذي ادى الى ولادة الدولة العباسية وتنوع الشعارات التي حملتها والتي قصدت من ورائها كسب كل المتذمرين من الحكم الاموي الى جانبها ، ادت كلها الى ان ينضم الى صفوفها خليط عجيب من المؤيدين فيهم الغلاة والمعتدلون ، المسلمون وغير المسلمين ، العرب وغير العرب . وقد أدى هذا كله الى نجاح الثورة ووصول بني العباس الى الحكم ، ولكنه كان في نفس الوقت المنبت الوخيم الذي رعت فيه عوامل الفساد والتفسخ التي نجم عنها هذا التناقض الكبير بين

ما رفعت الثورة من شعارات ، وما آل اليه الامر بعد أن انتهت السلطة الى البيت العباسي .

ولنا في تنوع مواقف المؤرخين العرب المسلمين من هذه الدولة ، وتقسمهم بين مآدح مستفيض في المدح ، وقادح مفرق في القدح ، خير دليل على عدم وحدة الموقف وتباين الآراء وفق الاهواء والمصالح التي كان يمثلها هؤلاء المؤرخون .

وتظل الدعوة قائمة الى الباحثين في هذه الحقبة من تاريخنا لان لا يكتفوا بالظاهر ، والا يعتمدوا على المروي والمدون فحسب ، وأن يستشفوا ما وراء هذه الاحداث من دلالات ومؤشرات ، وهذا هو ما نبغيه في دعوتنا لكتابة التاريخ العربي بأسلوب يتواءم المنهجية العلمية ، ويضع الحادث الفرد في مكانه الصحيح من المنظومة التاريخية .



الحواشي :

- (١) انظر من بين هذه الدراسات المروحة : Demett, D.C., Marwan Ibn Muhammad ph. d., thesis, Harvard university, 1929.
- Sha ban, M.A., The social and political back-ground of the Abbassid revolution, ph. d. thesis, Harvard, 1960.
- Omar, F., The Abbasid Califate, ph. d. thesis, London university, 1967.
- 2 — See, Demett. op. cit., p. 276.
- 3 — Van Vloten, Recherche sur la domination Arabe, ed. Amsterdam, 1894, pp. 35FF.
- (٢) انظر ك. فامبري ، تاريخ بخارى ، ص ١٢٠ فما بعد .
- 5 — Gibb, H.A.R., The Arab conquests in central Asia, London, 1925p.94.
- 6 — E.I.2. Art, Abbassids.
- (٣) حقق هذه المخطوطة ونشرها الدكتور عبد العزيز الدوري والدكتور عبد الجبار المطليبي بعنوان « اخبار الدولة العباسية وفيه اخبار العباس وولده » دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت ١٩٧١ .
- (٨) المصدر السابق ، ص ١٥ - ١٦ .
- (٩) المصدر السابق ، ص ١٥ .
- (١٠) المصدر السابق والمصححة نفسها .
- (١١) عمر (فاروق) بحوث في التاريخ العباسي ، ط. بيروت ١٩٧٧ ، ص ١٤ .
- (١٢) انظر ، مصورة ، تاريخ الخلفاء لمؤلف مجهول، نشر موسكو ١٩٦٧ ، الملخص باللغة الانكليزية ص ٥٣ .
- (١٣) البلاذري ، انساب الاشراف ، القسم الثالث ، العباس بن عبد المطلب وولده ، تحقيق عبد العزيز الدوري ، بيروت ١٩٧٨ .
- (١٤) انظر المصدر السابق ، فهرست المحتويات ، ص ٢٨٠ وما بعدها .
- (١٥) انظر ، الازدي ، تاريخ الموصل ، ط. القاهرة ١٩٦٧ ، الصفحات المتعلقة باحداث الانوام ١٤١ - ١٣٣ هـ .
- (١٦) حول هذه المخطوطة ، انظر ، فاروق عمر ، بحوث في التاريخ العباسي ، ص ١٩ - ٢١ .
- (١٧) نقلا عن المصدر السابق ، ص ٣٦ .

- (١٨) المصدر السابق ، ص ٤٠ - ٤١ .
- (١٩) فاروق عمر ، طبعة الدعوة العباسية ، الطبعة الاولى ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ٩٨ .
- (٢٠) المصدر السابق ، ص ٩٨ - ٩٩ .
- (٢١) المصدر السابق ، ص ٩٩ .
- (٢٢) انظر ، فاروق عمر ، طبعة الدعوة العباسية ص ٢٨١ .
- (٢٣) انظر مثلا ما ينقله فاروق عمر عن صاحب كتاب « النبذة » الذي يعتبر بان الدولة العباسية « دولة مباركة ردت الامور الى قرارها واستندت القضايا والاحكام الى خيارها » وقارنه بـراي ابن الطقطي صاحب « الفخري » الذي يعتبرها « دولة خداع ودهاء وغدر » او ابن عذاري وابن حزم الذين ينعمان سقوط دولة بني امية العربية ودواوينها وقلبة عجم خراسان . انظر المصدر السابق ، ص ٢٧٨-٢٧٩ .
- (٢٤) انظر ، الجاحظ ، البيان والتبيين ج ٢ ، ص ٣٦٦ ، المسعودي ، مروج الذهب ، ط . باريس ١٨٧٣ ، ج ٧ ، ص ٢٩١ - ٢٩٢ .
- (٢٥) اخبار العباس وولده ، ص ٢١٦ وما بعدها .
- (٢٦) المصدر السابق ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .
- (٢٧) المصدر السابق ، ص ١٩١ .
- (٢٨) من اجل تفاصيل اوفى حول هذا الموضوع ، انظر كتابنا ، خلافة بني امية ، ط . دمشق ١٩٧٢ ، ص ٣٧٣ - ٣٨٦ .
- (٢٩) اخبار العباس وولده ، ص ٢٩٢ .
- (٣٠) اخبار العباس وولده ، ص ٢٠٧ .
- (٣١) من اجل اخبار هذه الثورة انظر ، الطبري ، ط . ابو الفضل ابراهيم ، ج ٧ ، ص ٦٠٩ وما بعدها .
- (٣٢) اخبار العباس وولده ، ص ٢٨٥ .
- (٣٣) المصدر السابق نفس الصفحة .
- (٣٤) فاروق عمر ، طبعة الدعوة العباسية ، ص ٩٨ .
- (٣٥) انظر ، المصدر السابق ، ص ٩٦ .
- (٣٦) العيون والحداث ، ج ٣ ، ط . المثني ، بغداد ، ص ٢١١ .

- (٣٧) انظر النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ ، وانظر أيضا الطبري والبلاذري .
- (٣٨) الطبري ، ج ٨ ، ص ٥٩٩ .
- (٣٩) انظر اخبار هذه الثورة في ، الطبري ، ج ٨ ، ص ٦٠٩ وما بعدها .
- (٤٠) انظر ، ابن اعثم الكوفي ، كتاب الفتوح ، ج ٨ ، ط . حيدر آباد ، ١٩٧٥ ، ص ٣١٢ - ٣١٣ .
- (٤١) فتوح ابن اعثم الكوفي ، ج ٨ ، ص ١٧١ .
- (٤٢) فاروق عمر ، طبعة الدعوة العباسية ، ص ١١٧ .

